في سنا البلاغة العربيّة

من الــتّأسيس إلى التّرسيس

د. عبد الكريم برّاشد.

– جامعة طاهريّ محمد– بشّار.

تاريخ الارسال : 2018-06-04 **تاريخ النشر:** 2018-06-04

الملخص:

لعلّ مردّ البلاغة العربيّة يعود إلى ما وصلنا من بعض الأدب في العصر الجاهليّ، إذ ما نفتأ نعجب من امتلاك الجاهليّين ناصية القول وكذلك تفنّنهم، عبر طرق التّعبير عن بنات أفكارهم، ممّا شهد لهم، عند كثير من نقّاد البلاغة، بالفصاحة و البيان.

فلو تأمّلنا أشعار الجاهليّين الّتي صنعت جلّ أدبهم، نلفي الكثير من أساليب البيان والاستعارة والكناية، بعضها يتّصل باللّفظ وبعضها بالمعنى؛ وكأنّي بذلك يتّصل اتّصالا بفطرتهم الّتي فطروا عليها؛ فلقد ألفينا كثيرا من الشّعراء من يرسل القول إرسالا، حيث يكاد شعره لا يفترق عن الّنثر إلاّ في النظم، كما كان فيهم من ينظر إلى قصائده وينقّحها تنقيحا، كمثل زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما، طلبا منهم إلى نقل الشّعر إلى غاية هي ذاته قبل أيّ اعتبار آخر.

الكلمات المفتاحية: البلاغة – البيان– اللفظ – المعنى– النقد.

Abstract:

Arabic rhetoric probably dates back to what has remained from some of the literature of the pre-Islamic era. We are not surprised by the fact that people of this

era master the language, and express their thoughts in an artistic way as affirmed by many critics.

If we contemplate the poems of the pre-Islamic people that have made most of their literature, we will discover many of the methods of manifestation, metaphor and euphemism, some relating to the pronunciation and some in meaning. As if this has to do with their innate ability to say poetry spontaneously as if they were saying prose, as others such as Zuhair ibn Abi Salma, Hutai'ah and the like who minutely revise their poems, seeking to convey poetry for the sake of poetry before any other consideration.

Keywords: eloquence - rhetoric -word - meaning – criticism

قال الجاحظ(ت255ه) :« ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا يردّد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلّب فيها رأيه... فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحراز لما خوّله الله من نعمة، وكانوا يسمّون تلك القصائد: الحوليات والمقّلدات ، والمنقّحات ، والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنديدا وشاعرا مفلقا » .(1)

وقد سرد لنا الجاحظ نفسه رأي الأصمعي(ت216ه) في شعراء الحوليّات، حيث يقول، معلّقا عليه، قال الأصمعي:« زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشّعر» (2)وكذلك كلّ من جوّد في شعره ووقف عند كلّ بيت قاله، وأعاد فيه النّظر حتّى يخرج أبيات القصيدة كلّها مستوية في الجودة، وكان يقال: لولا أنّ الشّعر قد كان استعبده واستفرغ مجهوده حتّى أدخله في باب التّكلّف وأصحاب الصّنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الّذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا ».(3)

وغير بعيد عن هذا نجد ابن رشيق القيروانيّ يحدثنا عن الشّعر المطبوع والمصنوع فيقول:« المصنوع و إن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلّفا تكلّف أشعار المولّدين، لكن وقع فيه

هذا النّوع الّذي سمّوه صنعة من غير قصد ولا تعمّل ، لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتّى صنع زهير الحوليّات على وجه التّنقيح والتّثقيف... والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجانس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، لكن نظرها هو في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشّعر، وإحكام عقد القوافي... واستطرفوا ما جاء من الصّنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد، يستدلّ بذلك على جودة شعر الرّجل وصدق حسّه وصفاء خاطره؛ فأمّا إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطّبع وإيثار الكلفة ».[4]

والملاحظ من كلّ هذا، ممّا اقتبس من أشعار الجاهليّين ونصوص النّقّاد الأقدمين أنّ الشّعر الجاهليّ، من حيث بلاغته، يأبيان الصّنعة والتّكلّف والتّعمّل، إلاّ ماجاء من ذلك عفو الخاطر، وإن كان زهير قد سنّ للجاهليّين تنقيح الشّعر وتثقيفه وتجويده، فليس ذلك منه على سبيل الولع ولا من باب الحرص على الصناعة الشّعريّة؛ فلعلّه أنْ يكون قد قصد طَلَبَ الكمال الفنّيّ للشّعر، بالغا به قنّة التّعبير،حتّى يصير شاعرا فحلا صنديدا وخطيبا مصقعا .

*** البلاغة العربيّة في مناظرات الشّعراء والكتّاب:**

ورد في كتاب الأغاني، لأبي فرج الأصبهانيّ(ت967ه) أنّه كان يُضرب للنّابغة قبّة من أدمٍ بسوق عكاض، فيأتيه الشّعراء ليعرضوا عليه أشعارهم، وأوّل من أنشده الأعشى ثمّ حسّان بن ثابت، ثمّ الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشّريد؛ قال النّابغة:« والله لولا أنّ أبا بصير- الأعشى- أنشدني آنفا لقلت: إنّك أشعر الجنّ والإنس» .فقام حسّان قائلا: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك » ، فقال له النّابغة:« يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فَإنّكَ كَاللَّيْلِ الَّذي هُوَ مُدْرِكي * وَإنْ خِلْتَ أنَّ الْمُنْتَأى عَنْكَ واسِعُ.(5)

قال: فخنس حسّان لقوله » .

وقد يتبيّن من هذا أنّ النّابغة كان يتمتّع بسمعة رفيعة بين معاصريه، وكأنّي بهم يعترفون بتفوّقه وألمعيته، وأنّه من صَيارِفَة الشّعر الّذين يسطيعون، بذوقهم وحسّهم النّقديّ، الحكم عليه والتّمييز بين جيّده ورديئه.

ولعلّ أوّليات البحث في البلاغة العربيّة إنّما تلتمس من هاته المناظرات والمجالس الّتي كان يتصدّرها أمثال النّابغة الذّبيانيّ؛ فمن بين هذه الأوّليات تنقيح الشّعر وتجويده، إذ هو ممّا يدلّ على إلمام الشّاعر بالمقاييس البلاغيّة التي يحضّر شعره لها، ولا أدلّ على ذلك ممّا أثر عن زهير بن أبي سلمى الّذي قال:

ما أرانا نَقولُ إلاّ مُعارا * أوْ مُعاداً مِنْ لَفْظِنا مَكْروراً.(6)

ويعضده في هذا القول عنترة بن شدّاد:

هَلْ غادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ * أمْ هَلْ عَرَفْتُ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ.(7)

ففي هذين البيتين ما يدّل على أنّ العرب قد فطنوا إلى مفهوم البلاغة القائم على التّعبير عن المعنى الواحد بأساليب متنوّعة للدّلالة عليه، فكأنّي بعنترة بن شدّاد، بالرغم من كونه شاعرا جاهليّا قديما، يعدّ نفسه محدثا، قد أدرك الشّعر بعدما تجاوزه النّاس.

وقد نقحم ضمن هذه المناظرات، ماعرف عن عرب الجاهليّة من خطباء، وبلغاء كمثل ضَمْرة[8] الّذي كان يقول:« إنّما المرء بأصْغَرَيْه قلبه ولسانه إنْ صال صال بجَنان، وإن قال قال ببيان » .

ويثير الجاحظ، غير بعيد عن هذا، معرفة الجاهليّين بعض عيوب البلاغة والخطابة وكلام النّاس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسّخيف والمليح والحسن والقبيح والسّمج؛ وبكلّ قد تمادحوا وتعايروا.

فإن زعم زاعم أنّه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلِمَ ذكروا العيّ والحصر والمفحم والخطل والمسهب والمتشدق والمتفيق؛ ولولا أنّ هذه الأمور كانت تكون في بعضهم دون بعض، لما سمّي ذلك، استحسانا، من قبيل العيب والخطأ والغلط.

*** الكتّاب وأثرهم في نشأة البلاغة العربيّة:**

كان لظهور الكتّاب كبير الأثر في نشأة البلاغة العربيّة وتطوّرها؛ ولا ضير في هذا مادام أنّ الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم، كان قد اتّخذ زوجين اثنين من الكتّاب، كتّابا يدوّنون كلّ ما يوحى إليه من القرآن الكريم، وكتّابا يكتبون ما كان يبعث به من رسائل إلى الملوك وسراة الأقوام، داعيا فيها إلى دين الله الإسلام.

والأمر عينه ذاك الّذي تَخِذَهُ الخلفاء الرّاشدون بعده، حيث استخلصوا لشؤون المسلمين كتّابا يكتبون رسائل ليرسلوا بها إلى الأمراء والولاّة وقادة جيوشهم، في أصقاع الأرض، متناولين فيها إجابات عن أسئلة أو توجيهات تخصّ الحروب أو السّلوك مع رعاياهم، إذ إنّ المتدبّر في هذا الضّرب من الكتابات لَيَقِفُ على فيض من البلاغة والإيجاز غزير. وقد نلفي خلفاء بني أميّة

والعبّاسيّين مستنّين السّنّة ذاتها التّي سبقهم إليها الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام ، وكذا الخلفاء الرّاشدون، حيث علقوا يكتبون الرّسائل في كلّ شأن من شؤون الأمّة، كمثل طلب حرب أو صلح أو حثّ أو تحريض... وهكذا دواليك.

ولعلّ الكتّاب الّذين نهتمّ لأمرهم ونوليهم من العناية كبير الاهتمام أولئك الكتّاب الّذين يرومون أساليب البلاغة ويبغون البيان؛ فقد كثر رهط هؤلاء في عهد الخلفاء الرّاشدين، وأيّام الأمويّين، ثمّ تغيّر الحال إبّان العبّاسيّين إلى غير ما كان يؤول إليه، لاختلاط العرب بالعجم و مزاحمة هؤلاء لأولئك في علومهم بعامّة وإحاطتهم بعلوم اللّسان العربيّ بخاصّة. وكذا إيثار العبّاسيّين لهم أيّما إيثار.

وممّا ينبغي التّنبيه عليه أنّ يحي بن خالد البرمكيّ(ت190ه) أمر اثنين من كتّابه أن يكتبا كتابا في معنى واحد فأطال أحدهما وأوجز آخرهما، فقال للموجِز، وقد نظر في كتابه:« ما أرى موضع زيادة ». وقال للمطيل: « ما أرى موضع نقصان » .

وقد أثنى الجاحظ على طريقة الكتّاب وتفنّنهم في أساليب البلاغة فقال:« أمّا أنا فلم أر قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرا وحشيّا ولا ساقطا سوقيّا » .(9)

وها هو ذا النّديم(ت438ه) في كتابه الفرهست،يعقب الجاحظ، فقد عقد فصلا للكتّاب المترسّلين، نحو عبد الحميد بن يحي الكاتب(ت132ه)، الّذي ذلّل طريق البلاغة عبر الرّسائل، حيث ضرب به المثل لبلاغته وإنشائه، حتّى قيل: فُتِحَت الرّسائل بعبد الحميد وخُتِمَت بابن العميد(ت367ه)، وهكذا اتّفق على بيانات بعض الكتّاب الّذين تفنّنوا في أساليب القول.

ولو أَرَغْنا الإشارة إلى بعض فنون صناعة الكتابة فسيكون حريّا بنا التّنبيه على كتاب« المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر » لضياء الدّين بن الأثير(ت630ه)، وكذا« كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا » لأبي العبّاس القلقشنديّ(ت821)، بحيث كان لهما الأثر البالغ في تاريخ البلاغة لولا أنهما متأخّران عن عصر نشأتها.

وقد يتبيّن من هذا أنّ الكتّاب كانوا يتمتّعون بسمعة رفيعة في عصرهم، وكأنّي بهم يغترفون من نهر لا ينفد، وأنّهم من صيارفة النّثر الّذين يسطيعون، بذوقهم وحسّهم النّقديّ، الحكم عليه والتّمييز بين جيّده ورديئه.

ولعلّ أوّليات البحث في البلاغة العربيّة إنّما تلتمس من هاته الكتابات والمناظرات والمجالس الّتي كان يتصدّرها أمثال هؤلاء؛ فمن بين هذه الأوّليات تنقيح نثرهم وتجويده، إذ هو ممّا يدلّ على إلمام الكتّاب بالمقاييس البلاغيّة الّتي يحضرون نثرهم لها.

*** البلاغة عند المتكلّمين والمعتزلة:**

عنى المتكلّمون والمعتزلة، مِنْ مرجئة وشيعة وخوارج، كغيرهم من أساطين اللّسان العربيّ، بالخوض في فنون البلاغة العربيّة، فقد اعتقد هؤلاء المتكلّمون قواعد الإيمان، حيث أقرّوا بصحّتها وآمنوا بها، ثمّ طفقوا يرهنون عليها بأدلّة عقليّة.

وقد كان الجدل طريقا للدّفاع عن عقيدتهم وردّ حجج خصومِهم ودمغها، راكبين ألفاظا فهموا دلالاتها ووعوا مقاصدها، فراحوا يعرضونها في ألوان شتّى، وأساليب عدّة لأجل غلبة معارضيهم؛ فقد كان من المعتزلة من يباشر جدله بالشّكّ لينتهي فيما بعد إلى الاقتناع أو الإقناع؛ ومن هؤلاء إبراهيم بن يسار النّظّام(ت211ه) أحد كبار المعتزلة، إذ قال:« الشّاكّ أقرب إليك من

الجاحد و لم يكن يقينٌ حتّى كان قبله شكّ، و لم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حال شكٍّ » .(10)

وها نحن أولاء نجد الجاحظ المعتزليّ، الّذي يعدّ أنموذج المتكلّمين في الجدل، رائدا في هذا الباب بلا منازع، عبر كتبه الكثيرة الجمّة، ذلك أنّ صناعة الكلام والعناية بدلالة الألفاظ إنّما هما من طبيعة الجدل؛ وعليه قد يغدو كتاب البيان والتّبيين أوّل كتاب معروف في تاريخ البلاغة العربيّة.

إنّ المادّة الخامّ، الّتي جعلها المتكلّمون مرجعا لهم في حجاجهم ومنطقهم واستدلالهم، القرآن والسّنّة، فمن نصوصهما كانوا يستمدّون الأدلّة ويوجّهونها، نحو المعاني الّتي يرومونها، فهم أحيانا يدافعون عنها، وأحيانا يهاجمونها، وأحايين أخرى يثبتون المجاز فيها، وينفونه تارة أخرى؛ فقد ظلّ النّاس يقصدون إليهم قصدا لأجل فهم ما أشكل عليهم في القرآن، ممّا حدا بالجاحظ إلى جعلهم أقدر النّاس على الدّفاع عن الدّين وفهم أسرار الإعجاز القرآنيّ من اللّسانيّين، ففي كتابيه« البيان والتّبيين » و« الحيوان » ردود عدّة على أقوال المعترضين على بعض آي القرآن الكريم، ممّا حدا بالجاحظ إلى الحديث عن المجاز العقليّ؛ ولعلّنا أن نضيف إلى هؤلاء بشر بن المعتمر(ت210ه) مؤسّس الاعتزال في بغداد، صاحب الصّحيفة القيّمة والوثيقة البلاغيّة الّتي نقلها الجاحظ عنه في البيان والتبيّين.

قال الجاحظ:« مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السّكونيّ الخطيب وهو يعلّم فِتْيانَهُم الخطابة، فوقف بشر فظنّ إبراهيم أنّه إنّما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النّظّارة، فقال بشر: اضربوا عمّا قال صفحا واطووا عنه كشحا ثمّ دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه » .

وكان أوّل ذلك المكان:« خذ من نفسك ساعة نشاطك و فراغ بالك وإجابتها إيّاك، فإنّ قليل تلك السّاعة أكرم جوهراً وأشرف حسبا وأحسن في الإسماع وأحلى في الصّدور وأسلم من فاحش الخطاء، وأجلب لكلّ عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع.

واعلم أنّ ذلك أجدى عليك ممّا يعطيك الأطوال للكدّ والمطاولة والمجاهدة وبالتّكلف والمودّة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللّسان سهلا، كما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

وإيّاك والتّوعّر، فإنّ التّوعّر يسلمك إلى التّعقيد، والتّعقيد هو الّذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، وَمَنْ أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حقّ المعنى الشّريف هو اللّفظ الشّريف، ومن حقّهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجّنهما وعمّا تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقّهما فَكُنَّ في ثلاث منازل فإنّه أولى الثّلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إمّاعند الخاصّة إن كنت للخاصّة قصدت، وإمّا عند العامّة إن كنت للعامّة أردت.

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من المعاني الخاصّة، وكذلك ليس يشرف بأن يكون من معاني العامّة، وإنّما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكلّ مقام من المقال، وكذلك اللّفظ العامّيّ والخاصّيّ.

فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك ولطف العامّة معاني الخاصّة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التّامّ.

قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أوّل نظرك وتكلّمك وتجد اللّفظة لم تقع موقعها و لم تصل قرارها، وترى حقّها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحلّ في مركزها ونصابها، و لم تتّصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنّزول في غير أوطانها، فإنّك إذا لم تتعاط قرض الشّعر الموزون و لم تتكلّف اختيار الكلام المنثور لم يعدك بترك ذلك أحد.

فإن أنت تكلّفتها و لم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك، بصيرا بما عليك ومالك وعابك من أنت أقلّ عيبا منه ورأى من دونك كأنّه فوقك » .

فإن ابتليت بأن تتكلّف القول، وتتعاطى الصّنعة و لم تسمح لك الطّباع في أوّل وهلة وتعاطى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولاتضجر ودعه، بياض يومك، وسواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنّك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جربت من الصّناعة على عرق.

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن طول إهمال فالمنزلة الثّالثة أن تتحوّل من هذه الصّناعة إلى أشهى الصّناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنّك لم تشته و لم تنازع إليه إلاّ وبينكما سبب، والشّيء لا يحنّ إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأنّ النّفوس لا تجود بمكنونها مع الرّغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرّهبة، كما تجود به مع الشّهود والمحبّة.

وقال ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتّى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. قال بشر: فلمّا قرأت الصّحيفة على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

وقد شرح الجاحظ عبارة بشر الأخيرة بأمثلة عدّة، نكتفي منها بكلامه عن الخطيب إذ قال :« فإن كان الخطيب متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلّمين، كما أنّه إن عبّر عن شي من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنّ بها وأشغف، ولأنّ كبار المتكلّمين ورؤساء النّاظرين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكلّ خلف وقدوة لكلّ تابع؛ ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرّقوا بين البطلان والتّلاشي، وذكروا الهاذية والهوية والماهية وأشباه ذلك » .[11]

وورد في لسان العرب، لابن منظور(ت711ه): أيس وليس من حيث هو وليس هو؛[12]وهذا من ألفاظ المتكلّمين وعندهم الأيسية واللّيسة الهاذية والهوية والماهية: نسبة إلى هذا، هو، ما هو.

إذاً إنّ المتأمّل في هذه الصّحيفة يجد بشر بن المعتمر يوصي راكب فنون الأدب بأمور خطيرة دونكموها:

1. أن يتخيّر أنسب الأوقات للإنتاج الأدبيّ، فليس الكاتب أو الأديب مهيّئا في الأوقات كلّها للإلهام والإبداع.
2. أن يتلافى التّوعّر المؤدّي إلى التّعقيد، الّذي يقضي على المعنى المعيب للّفظ.
3. أن يراعي المزج بين المعاني والألفاظ، أي إنّ المعنى الكريم الشّريف يتطلّب لفظا كريما شريفا، أي فصيحا. ومن حقّ المعنى واللّفظ صيانتها عمّا يفسدها ويهجّنها.
4. أنّ المثل الأعلى للكلام البليغ عنده أن يكون اللّفظ رشيقا عذبا، وفخما سهلا، والمعنى ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا.

5. ثمّ إنّ أساس البلاغة عنده أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، فإذا أمكن الأديب أن يفهم العامّة معاني الخاصّة، ويكسوها الألفاظ الّتي لا تصغر عن العامّة ولاتنزل أو تنبو عن الخاصّة فسيغدو ذلك جميلا حسنا.

6. وَأَوْجَبُ للألفاظ وأماكنها من الكلام أن تقع موقعها وأن تصير إلى قرارها وإلى حقّها من الأماكن المقسومة لها، وتتّصل بشكلها، وأن لا تكون نافرة من موضعها أو مكرهة على اغتصاب أماكن غيرها، أو النّزول في غير مواطنها.

7.حَقيقٌ على من يتعاطي صنعة الأدب أن لا يضجر إذا لم تسعفه طبيعته بالقول في أوّل وهلة، بل عليه الانصراف بعض الوقت عن المحاولة، ثمّ يعاودها عند نشاطه وفراغ باله فقد يواتيه القول دون تكلّف ولا عناء وتستجيب له طبيعته وسجيّته.

8.أَوْلى، لمن يمتنع عليه القول بعد ذلك من غير انشغال وطول إهمال، ثمّ أولى أن يتجوّل من هذه الصنّعة إلى أشهى الصنّاعات إليه وأخفّها عليه.

9.وعليه توجِب البلاغة على المتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، وأن يوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، وهذا يلزمه بأن يجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، أي موضعا.

*** الهوامش والتّعليقات:**

---

[1] الجاحظ، البيان والتّبيين، تح، عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، ج2، –ص18.

[2]– الجاحظ، المصدر نفسه، ج2، ص18.

[3]– الجاحظ المصدر نفسه، ج2، ص18.

ـ(4) ابن رشيق، العمدة، تح، محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، بيروت، 1401ه/1981م. ج1، ص108.

ـ(5) النّابغة الذّبيانيّ: ديوانه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2،مصر،القاهرة. من قصيدة " عفا ذو حسا"... البيت الثّامن والعشرون.

ـ(6) جعل بعضهم هذا البيت لكعب بن زهير بن أبي سلمى وهو هكذا:

ما أرانا نقول إلاّ رجيعا * ومعادا من قولنا مكرورا

ومعنى "مكرور" معطوف أو مهجوم عليه أو مرجوع عنه.

لم أقف على هذا البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح وتقديم الأستاذ عليّ حسن فاعور، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت،1988م.

ـ(7) عنترة بن شدّاد العبسيّ: ديوانه، تح: محمّد سعيد المولويّ، المكتب الإسلاميّ، الشّركة المتّحدة للتّوزيع. لبنان، بيروت.لا.ت.

ـ(8) هو ضَمْرَة بن ضَمرة بن جابر بن قَطَن النّهشليّ التّميميّ،شاعر جاهليّ وسيّد من سادات قومه وأحد خطبائهم وفرسانهم، حيث كان بنو تميم يحتكمون إليه لرجاحة عقله؛ وقيل: اسمه شِقّ أو شِقَّة بن ضمرة، ولّما قابل ملك الحيرة النّعمان بن المنذر، وكان يسمع عنه وعن عظيم منزلته دون أن يراه، فلمّا رآه اِقْتَحَمَتْهُ عينُه، وقال:« تسمعَ بالمُعَيْدِيّ خير من أنْ تراه » .فردّ عليه ضمرة ردا مفحما أظهر فيه ذكاءه وفطنته وكياسته، إذ ممّا قاله:« إنّ الرّجال لا تكال بالقفزان، ولا توزن بالميزان، وإنّما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إنْ صال صال بجَنان، وإن قال قال ببيان » . فأعجب الملك ما سمع وقال له: « إذًا أنت ضمرة بن ضمرة، يريد: أنت كأبيك » .

والضَّمْرَةُ جلدة السّخلة من الماعز...

* ينظر في ترجمة: ابن سعيد الأندلسيّ: نشوة الطّرب في تاريخ جاهليّة العرب، تح:نصرت عبدالرّحمن، مكتبة الأقصى، الأردنّ.1982م.

ـ(9) الجاحظ، البيان، ج1. ص139.

ـ(10) الجاحظ، الحيوان، تح، عبد السّلام هارون، مكتبة البابي الحلبيّ، ج6، ص26.

ـ(11) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص139.

ـ(12) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ت. مادّة أيس و ليس.